مجلة " دارالحديث الحسنية " - سنة 1402 - العدد 3

صورة الغلاف غير متوفرة

فهرس

الصفحة

الصفحة

دراسات فقهية واصولية :

الصفحة

دراســـات عامــــة :

شخصيـــات :

نماذج من أوهام النقاد المشارقة في الرواة المغاربة

للأستاذ د. ابراهيم الصديق

يعتبر هذا الموضوع القديم الجديد معا ، مما يلفت نظر المغربي حين يقرأ لمشرقي شيئا ما عن المغرب والمغاربة ، ومع ان شعور اهل المغرب ـ ومن قديم الزمان ـ يكاد موحدا نحو هذه الظاهرة فلم ار من اولاها حقها من العناية والبحث ، الا نتفا هنا وهناك . والواقع انه لا يمكن بحث هذا الموضوع والاحاطة بجميع جوانبه في مقال او اثنين ، بل يتطلب دراسة مستفيضة تستبطن اسباب هذه الظاهرة ، وتجلي العوامل التي ادت الى بروزها منذ مئات السنين الى الآن ، وباعتبار ان هذا المقال يخص احد جوانبها فقط ، فلا باس من تسليط بعض الاضواء عليها بصفة عامة عبر « مدخل » يكشف ولو بصفة مجملة : موقف المغاربة من المشارقة ، والمشارقة من المغاربة ، ويتعرف منه على أسباب الموقفين . ولهذا قسمت هذا البحث الوجيز الى قسمين : المدخل الى الموضوع . والنماذج :

القسم الاول : المدخل الى الموضوع :

يدرك الباحث المتفحص دون عناء ، ان علماء المشرق الذين لم يدخلوا اقطار المغرب كالاندلس ، والمغرب الاقصى وما اليهما ، يقعون في اوهام غير

يسيرة ؛ عند ما يتحدثون عن المغرب وتاريخه ورجاله ؛ باستثناء قلة منهم، كالحافظ ابي الطاهر السلفي نزيل الاسكندرية والمتوفى بها سنة 575 هـ. فقد كان له اتصال وثيق بالمغرب واهله . وبيته يعتبر قبلة الحجاج والطلاب والتجار من المغاربة ، وكأنه « بيت مغرب » . وكان يعرف أحوال المغاربة وأسرهم وانسابهم ، والنابهين من علمائهم . ومن لم يرحل منهم كانوا يكاتبونه ويكاتبهم يجيزهم ويستجزهم . والحاج منهم كان يعتبر من تمام حجه زيارة السلفي وحضور مجالسه ، ويمكن عده بمثابة حلقة وصل بين المشرق والمغرب ، فأسانيد المشارقة الى المغاربة يمر اغلبها من طريقه ؛ والعكس صحيح .

وكالسيد محمد مرتضى الزبيدي من المتأخرين . فقد كان له هو الآخر اتصال غير عادي بالمغرب والمغاربة . وبينه وبينهم مكاتبات . وله منهم زيارات فحصل له من ذلك تعرف كاشف على المغرب واهله . بخلاف غيره من علماء المشرق الذين استغلق عليهم المغرب لاسباب سنحاول التعرف على بعضها فيما بعد .

وهذا على عكس المغاربة بالنسبة الى المشرق والمشارقة . كما سيتضح من مناقشة ابي العباس المقري في قوله :

« ... على أن ابن خلكان وغيره من المشارقة ؛ ربما يقع لهم الغلط في تاريخ أهل المغرب لعبد الديار وغير ذلك مما لا يخفى على من مارس علم التاريخ ؛ كما ان كثيرا من المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة لما ذكرناه ؛ ولذا قال شيخ الاسلام ابن حجر في « انباء الغمر بأبناء العمر » حين عرف ابن خلدون : ... وصنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ... ولم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ولا سيما اخبار المشرق ، وهذا بين لمن نظر في كلامه » (1) .

ويمكن تحليل كلام المقري هذا الى ثلاثة عناصر :

1) غلط المشارقة في المغرب واسبابه .
2) تناول المغاربة لقضايا المشرق وتاريخه ورجاله .
3) قضية ابن خلدون .

---

(1) « ازهار الرياض في أخبار عياض » للمقري 1 / 25 ط. لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

العنصر الاول : غلط المشارقة في المغرب واسبابه :

أولا : غلط المشارقة في المغرب :

تدل التجارب والدراسات على ان غالب الوقائع والاحداث التاريخية وكذلك ما يسطر في كتب تراجم الرجال من عرض لاعمالهم وتقويم لاحوالهم . كل ذلك يكتنفه حالتان : حالة يكون فيها الحدث او مضمون الترجمة ظاهرا بينا واضحا متسلسلا تسلسلا منطقيا لا لبس فيه ولا غموض، وحالة يكون فيها ذلك مشتبها ومتداخلا ، وظاهر التناقض غير منسجم ولا مترابط ، بحيث يدرك الباحث أن ما هو مسطرا امامه ، له خلفيات تحتاج الى بحث وتعمق لادراك خفاياه وربط حلقاته .

هذه الحالة الثانية ، عند ما تلابس احداث المغرب او ترجمة احد رجاله ويتناولها المشارقة بالبحث فانهم يحجمون عن الفحص والمقارنة والتدقيق ، واستخدام القواعد التي اصلوها هم انفسهم للتمييز بين المشتبهات ، والفصل بين المتداخلات والوصول الى الحقائق على ما هي عليها بل يمرون عليها مر الكرام ولا يكلفون انفسهم عناء البحث حسب المنهج الذي يسيرون عليه عندما تعترضهم مثل هذه الحالة بالمشرق ... وسيتضح كل هذا عند عرض النماذج ، ولا شك ان للمشارقة عذرهم في ذلك ، لان عوامله متعددة كما سيظهر مما يأتي :

ثانيا : اسباب غلط المشارقة في المغرب .. واهمها فيما يبدو :

1) عدم اتقان اغلب المشارقة للخط المغربي ، فتشتبه عليهم الاسماء والانساب وخاصة المتقاربة في الرسم ، وقد وضع العلماء كتبا عديدة للتمييز بين المتشابه من الاسماء والانساب والكنى والمؤتلف خطا والمختلف نطقا . الخ . الا ان ذلك عندما يتعلق بالمغرب يعوق الخط المغربي مع الاسباب الباقية عن تحريره .

2) تاخر وصول كتب المغاربة الى المشرق ، على عكس كتب المشارقة التي تصل — في غالب الاحوال — الى المغرب في عصر مؤلفيها او بعده بقليل . حيث تقرا على مؤلفيها او على من قراها عليهم . وينتج عن تأخر وصول كتب المغرب الى المشرق :

أ ـ تداول الكتاب بين ايدي النساخ فيقع فيه التبديل والتحريف .

ب ـ انطماس معالم النسخ الاصلية بالمحو والرطوبة وغير ذلك من الآفات .

ج ـ عدم تحليل الوقائع والاحداث المغربية تحليلا معقولا باستقصاء اسبابها من المصادر التي تحكي القول ومعارضه ليمكن تكوين فكرة شاملة عن الواقعة . فقد يصل الى المشرق كتاب يحمل وجهة نظر معينة عن واقعة ما بعد خمسين سنة من وقوعها ، او تصل ترجمة رجل على شكل . ثم يصل كتاب آخر يحمل وجهة نظر مغايرة . او الترجمة على شكل آخر بعد مائة سنة او قد لا يصل ـ وهكذا تبقى افكار المشارقة ومعلوماتهم عن المغرب والمغاربة ناقصة غير شاملة ولا مجددة . ومعلوم ان تقويم رجل او حدث لا يكون تاما الا اذا استوفى عناصر من اهمها الاحاطة بسائر بالظروف والملابسات . والمقارنة بين الاقوال المتعارضة . في كل ترجمة او حدث . ثم انه جرت عاده المؤلفين ان ينقلوا عن بعضهم . وخاصة ما كانت مصادره شحيحة كأخبار المغرب وتراجم رجاله . فاذا غلط مشرقي في أمر مغربي نقل المؤلفون المشارقة الغلط كما هو وتدوول بينهم . وربما نقله بعض المغاربة عنهم كذلك .

3) اخذ المشارقة كتب المغاربة ـ غالبا ـ على انها وجادات او بالاجازة العامة ، دون قراءتها على مؤلفيها او على من قراها عليهم . وبذلك يفوتهم تلافي ما تقدمت الاشارة اليه من نقص . ولا يدققون في ضبط التواريخ والانساب والاسماء والوقائع .

4) بعد الديار وصعوبة وسائل الاتصال . وابتعاد المغرب عن مراكز الاحداث المهمة في الشرق وقلة ما كتب عنه وعن تاريخه ورجاله . او عدم وصول ما كتب منتظما وموثقا الى المشرق كما تقدم .

ومع كل هذا فلا تنكر جهود علماء المشرق . وخاصة نقاد الحديث منهم في محاولة التعرف على احوال رجال المغرب باعتبار معرفة احوال الرجال من اهم وظائفهم ، بما تيسر عندهم من مصادر على علاتها والحق انهم استفرغوا وسعهم وطاقتهم في ابراز تراجم المغاربة على النحو الذي نرى في كتبهم رغم كل ما تقدم . وعذرهم في اوهامهم قائم لا محالة . ويكفي انه لولا جهودهم في هذا الصدد لبقي العديد من علماء المغرب وائمته مجهولين او لا يعرف عنهم الا القليل .

وكتب الحافظ الذهبي وحده كافية في تجسيد هذا المعنى بكل ابعـاده ، رغم اوهامها الكثيرة ، كما سيتضح من النماذج .

العنصر الثاني : تناول المغاربة لقضايا المشرق وتاريخه ورجاله . وفي ذلك يقول المقري : « كما ان كثيرا من المغاربة لا يحررون تاريـخ المشرق » ، مستشهدا بكلام ابن حجر في ابن خلدون .

اما كلام ابن حجر في ابن خلدون فهو واقعة عين واستثناء كما سيأتي في العنصـر الثالـث .

واما ان المغاربة لا يحررون تاريخ المشارقة ، فهذا ما لا يوافق عليه المقري لعدة عوامل تمكن الاشارة الى اهمها على سبيل الاجمال ثـم على سبيـل التفصيـل .

أولا : على سبيل الاجمال :

باعتبار ان المشرق هو مهبط الوحي ، وبأقطاره استقر معظم الصحابة الذين نقلوا القرءان والسنن عن رسول الله (ص) وتلقى عنهم تابعوهـم وتابعو تابعيهم ، ثم تلامذتهم من بعدهم ، وبه كان الخلفاء الراشدون ومـا ظهر في وقتهم من احداث عظيمة ، وهو منشأ الائمة الكبار فـي مختلـف العلوم الاسلامية ، ثم به مكة والمدينة مقصد الحجاج والزوار ، فلا ريب ان المغربي اذا اراد ان يكمل فرائض دينه ، ويتقن لغة كتابه ، ويتلقى العلوم من مصادرها الاصلية وتعلو روايته ، فعليه أن يرحل الى المشرق لتحقيق كل ذلك ، وما لا يحصى من المنافع التي تعود عليه في دينه وثقافته ، وهكـذا صب المغاربة اهتمامهم الكلي على المشرق يدرسون تاريخه ، ويحللـون احداثه ويحفظون اسماء رجاله وانسابهم واشعارهم ويحيطون بتراجمهم ، مع قدر كبير من الاستيعاب والضبط والتثبت فشدوا الرحال الى المشرق، ومنهم من شد اكثر من رحلة ، وتقصوا حقائق الاخبار في اماكنها ، ورووا الكتب عن مؤلفيها ، او عن ثقات من رواها عنهم ، محاولين ما امكنهم تلافي النقص الذي يسببه لهم بعد ديارهم عن مركز الاحداث الاسلامية الكبرى .

وكان رائدهم ــ دائما ــ هو الاعتناء الفائـق بتحقيـق الروايـات والتواريخ ، وضبط الاسماء والالفاظ وتصحيح النسخ ، واستبعاد الاخطاء،

والتمييز بين المشتبهات ، حتى فاقوا المشارقة في هذا الصدد ، واعتبروا متشددين في اعتبار الضبط الى حد التزمت ، بل ربما عاد عليهم تشددهم بنقيض قصدهم ، فالعلو الذي ينشدونه قد اضاعوه بسبب ردهم للروايات لادنى هفوة تصدر من راو فيما يرجع الى الضبط ، وقد لاحظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » في ترجمة الحافظ ابن الفخار المالقي ، ان المغاربة نازلون في اسانيدهم وبين الحافظ السخاوي في « فتح المغيث » سبب هذا النزول فقال : « ان العلو المعتبر عند المغاربة هو علو الصفة لا علو المسافة » (2) . ولعل ذلك يفسر لنا قول القاضي عياض في باب ضبط اختلاف الروايات من « الالماع » : « والناس مختلفون في اتقان هذا الباب ، ولاهل الاندلس فيه يد ليست لسواهم » ونقل في ترجمة شيخه ابي جعفر بن المرخي المتوفى سنة 533 من « الفنية » عن ابي علي الجياني قوله فيه وفي ابي بكر بن مغوز المعافري : « ليس من هنا الى مكة في هذا الباب مثلهما » .

ويكفي ان نستشهد في هذه العجالة بمثال واحد على تشدد المغاربة في الضبط وعدم تساهلهم فيه ، توجد منه العشرات في كتبهم : ترجم ابن الابار في « التكملة » للحافظ الاندلسي الكبير ابي العباس النباتي المعروف بابن الرومية الاشبيلي – وله شأن عظيم عند حفاظ المشرق كما سيأتي قريبا – وبعد ان وصف حفظه واطلاعه وتمكنه في علو الحديث ، قال : « رايته ولقيته غير مرة ولم اخذ عنه ولا استجزته » وتبحث عن سبب هذا الترك من ابن الابار لهذا الرجل رغم طوافه بالمشرق وحصوله على روايات عالية ، ما حلم بها ابن الابار في الاندلس ؟ فتجد انه قال قبل ذلك في ترجمته : « وغيره اضبط منه » . وهذه العبارة لا يخطر على بال مشرقي ان يتحامى مثل النباتي من اجلها ، لانها تصنف عندهم في مراتب الجرح الخفيفة حتى ان بعضهم لم يعتبرها جرحا باعتبار انه ما من راو الا وغيره اضبط منه في شيخ او بلد ، فمالك مثلا اضبط في الحجازيين منه في العراقيين ، وهو اضبط في الزهري من الليث ، والليث اضبط في المصريين منه ، وشعبه اضبط في العراق منهما ، وهكذا .

---

(2) علو المسافة هو تقليل عدد الوسائط من غير نظر الى حال الراوي وعلو الصفة هو النظر الى حال الراوي اولا وبالذات ، وتمكنه او عدم تمكنه في باب الضبط ، كان يكون احفظ او اتقن او اقدم سماعا او ملازمة لشيخه وهكذا مع مراعاة بقية شروط الصحة.

وباعتبار هذا التشدد في الضبط ، كان المغاربة الذين لم تتيسر لهم الرحلة الى المشرق كابن عبد البر ، وابي علي الجياني والقاضي عياض وابن القطان ، وابن الابار ، اكثر ضبطا واشد تحريا فيما يرجع الى المشرق والمشارقة ممن رحل ؛ حتى لا يدخلوا من هذه الناحية .

ثانيا : على سبيل التفصيل :

ويمكن الاكتفاء هنا - على سبيل المثال لا الحصر - بعرض قل من كثر من مؤلفات المغاربة التي تخص المشرق واخباره وتراجم رجاله ، وسنرى منها ما يستدرك على المشارقة اخطاءهم في هذا المجال ويحقق ويضبط الوقائع والتواريخ والانساب المشرقية ، والحال ان عددا من مؤلفيها لم يرحلوا الى المشرق ، فمنها :

« تاريخ في المحدثين » لابي عمر احمد بن سعيد ابن حزم الصدفي المنتجيلي المتوفى سنة 350 هـ ، وهو خاص بالرواة المشارقة وقد قال فيه ابن حزم في « رسالة تفضيل الاندلس » : « ما وضع في الرجال احد مثله ، الا ما بلغنا من تاريخ محمد ابن موسى العقيلي ، واحمد بن سعيد هو المتقدم في التأليف ، القائم في ذلك .

— « الذيل على تاريخ البخاري » لمسلمة بن القاسم القرطبي المتوفى سنة 353 ، اشترط الا يذكر فيه الا من اغفلهم البخاري ، فاستدرك عليه رجالا ما عرفوا وعرفت احوالهم الا من جهته ، كما نجد النقول عنه بكثرة في كتب حفاظ المشرق ، وقد عدل وجرح وازال الجهالة عن رجال ، وقال الحافظ ابن حجر عن مؤلفه : « انه رجل كبير القدر » .

— ما روى الكبار عن الصغار « لنفس المؤلف » .

— « المؤتلف والمختلف » للحافظ ابن الوليد بن الفرضي ، وتوجد النقول ايضا عنه بكثرة في كتب المشارقة .

— « التمهيد » لابن عبد البر . واهميته من ضبط الوقائع والتواريخ والانساب لا تخفى على دارس .

— « الاستيعاب » لـه . وقد اثبت فيه الصحبة لرجال . ونفاها عن آخرين واستدرك على المشارقة وناقش وبين وفصل . بحيث يعتبر احد الاصول المعتمدة في هذا الباب ، والحال ان مؤلفه لم يبارح الاندلس .

— « كتاب الكنى » لـه .

— « الانساب » لـه .

— « جمهرة انساب العرب » لابن حزم .

— « التعديل والجريح ، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح» لابي الوليد الباجي . ولا يخلو كتاب في تراجم رجال الصحيح من النقل عنه .

— « تقييد المهمل وتمييز المشكل » لابي علي الجياني المتوفى سنة 489 ويعتبر اصل الاصول فيها يرجع الى شرح الغوامض والمبهمات والمشكل من اسماء رجال الصحيحين وكناهم والقابهم . الخ . ثم التنبيه على الاوهام الواقعة من رواة الكتابين عن الشيخين فيما يرجع الى ما تقدم. بحيث يعتبر صدور مثل هذا الكتاب غريبا من شخص لم يرحل عن الاندلس.

— « مشارق الانوار » للقاضي عياض . وقد اربى فيه على شيخه الجياني وزاد وافاد في هذا المعنى فوائد لا توجد عند غيره . وهو الآخر لم يبارح المغرب والاندلس .

— « لسان البيان عما في كتاب ابي نصر الكلاباذي من الاغفال والنسيان » لابي عبد الله بن يربوع الاشبيلي المتوفى سنة 522 . وهو استدراك على كتاب الكلا باذي في رجال البخاري .

— « المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج » لـه .

— « الاعلام بما في المؤتلف والمختلف للدارقطني من الاوهام » لابي محمد اللخمي الرشاطي المريي .

ويكفي انه استدرك على الدارقطني حافظ الدنيا .

ـــ « انســـاب الـــرواة » لـــه .

ـــ « غوامض الاسماء المبهمة » لابي القاسم بن بشكوال في عشرة اجـــــزاء .

ـــ « اخبـــــار الاعـــــمشي » لـــــه .

ـــ « اخبـــــار النسائـــي » لـــــه .

ـــ « اخبـــــار المحاسبـــــي » لـــــه .

ـــ « اخبار اسماعيل القضي » لـــه .

ـــ « اخبـــــار ابـــن وهـــــب » لـــــه .

ـــ « اخبـــــار ابـــن المبـــارك » لـــــه .

ـــ « الروض الانف » للسهيلي . واهميته في تحقيـــق الوقائـــع وشرح الغوامض وضبط التواريخ والاسماء والانساب لا تخفى على باحث .

ـــ « بيان الوهم والايهام » لابي الحسن بن القطان الفاسي ، وقد اتى فيه بما يتعجب منه في هذا الباب كما بينت ذلك بتفصيل في الاطروحة التي حضرتها عنه بعنوان : « علم العلل في المغرب من خلال كتاب بيـــان الوهم والايهام لابن القطان » يسر الله مناقشتها وازاح العوائق عن طريق دار الحديث الحسنية عمرها الله .

ولم اتعرض هنا لفهارس المغاربة ورحلاتهم ، ومعطياتها في هـــذا المضمار . فان لها مقالا خاصا او بحثا مفردا ان شاء الله .

ولنختم هذا العرض الوجيـــز بنبذة عن :

ـــ « الحافل في تذييل الكامل » لابي العباس النباتي الذي تقدمت الاشارة اليـــــه :

يعتبر « الكامل في الضعفاء » لابي أحمد بن عدى الجرجاني . الذي يقع في عشرين مجلدا ، اجمع كتاب فى موضوعه . وعليه بني الذهبي كتابه « ميزان الاعتدال » حيث استدرك من اغفلهم ابن عدى ، واضاف من جاء بعد ابن عدى من الرجال ، ومن اهم مصادر الذهبي في استدراكه على الاصل ذيله المسمى « بالحافل » لابن الرومية الاشبيلي ، كما قال في مقدمة « الميزان » : « ... فهذا كتاب الفته بعد كتابي المنعوت « بالمعنى » وطولت فيه العبارة ، وفيه عدة من الرواة زائد على من في المعنى ، زدت معظمهم من « الحافل المذيل على الكامل » .

ثم كان « الحافل » من اهم مصاور زيادات ابن حجر في « لسان الميزان » على الذهبي . كما في الامثلة التالية :

لسان الميزان 21/1 : « اباء بن جعفر النجيرمي ... أورده الذهبي في ذيل الضعفاء . فقال : كذاب كان بالبصرة ، كذا اورده تبعا للنباتي في « الحافل ذيل الكامل » .

لسان الميزان 41/1 : « ابراهيم بن بكر الشيباني الاعور كوفي .. تبع فيه المصنف ـ اي الذهبي ـ صاحب الحافل » .

لسان الميزان 331/1 : « اخشن السدوسي عن انس . قال الموصلي : حديثه ليس بالقائم ، روى عنه عبد المومن بن عبد الله السدوسي . قاله النباتي في الحافل . قال : ولم يخرج الموصلي من عهدة عبد المومن » .

لسان الميزان 369/1 : « اسحاق بن كثير من التابعين ... ولم يذكر له الازدي شيخا سوى اسماعيل بن مسلم . وتعقبه النباتي بأن شيخه هذا هو اسماعيل بن سليمان الازرق ؛ وليس بحجة » . وهكذا نجد « الميزان » و « لسانه » لعلمي هذا الشأن مملوئين بالنقل عن الحافل واعتماده . وتسليم كلامه في الرواة المشارقة .

العنصر الثالث : قضية ابن خلدون :

اذا لاحظ الحافظ ابن حجر على ابن خلدون انه لا يحرر تاريخ المشارقة فهي ملاحظة ينبغي ان تقصر على ابن خلدون وحده ، ولا تتعدى الى غيره فيجعل حجة على المغاربة كلهم .

نعم باعتباره ان لكل قاعدة شواذ كما يقال ، والاستقراءات تكون في معظمها اغلبية . فقد وجد مفاربة قلائل مثل ابن خلدون يهمون في أمور المشرق ، كابن حزم على جلالته وحفظه واطلاعه . فقد ألف ابن القطان الفاسي ، كتابا انتقد فيه اوهام ابن حزم في « المحلى » في اسماء الرجال، وانسابهم ، وفي التواريخ وما الى ذلك . نقل جملة وافرة منه في كتابه « بيان الوهم والايهام » والحق ان بعض تلك الاوهام فاحش . وكذلك الف بعض المتأخرين من علماء المشرق ، وهو السيد احمد رافع الطهطاوي المصري المتوفى سنة 1354 كتاب « المسعى الحميد الى بيان وتحرير الاسانيد » كشف فيه عن أوهام غريبة في احدى الفهارس المغربية المشهورة . وتوجد كذلك أوهام هنا وهناك لبعض المغاربة . ولكن كل ذلك يعد من الشواذ التي لا تقدح في النتيجة العامة المستخلصة مما تقدم على ان ابن حجر كان سيء الراي في ابن خلدون بصفه خاصة . ولا مجال لذكر تفاصيل ذلك الآن . ولنكتف باشارة عابرة ذكرها الحافظ السخاوي في « الاعلان بالتوبيخ » حيث قال :

« . . . وكذا مدح تاريخ ابن خلدون صاحبه التقي المقريزي . . . ولم يوافقه شيخنا (اي ابن حجر) الا في بعض . وحقق انه لم يكن مطلعا على الاخبار على جليتها ، ولا سيما اخبار المشرق . وهو بين لمن نظر في كلامه ».

وقال : « كان ابن خلدون يجزم بصحة نسب بني عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر ، وشهروا بالفاطميين الى علي رضي الله عنه ويخالف غيره في ذلك ويدفع ما نقل عن الائمة من الطعن في نسبهم ويقول : انما كتبوا ذلك المحضر مراعاة للخليفة العباسي .. قال شيخنا (اي ابن حجر) : وابن خلدون كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسبة الفاطميين اليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين ، وكون بعضهم نسب الى الزندقة وأدعى الالاهية كالحاكم ، وبعضهم في الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى قتل في زمانهم جمع من أهل السنة . وكان يصرح بسب الصحابة في جوامعهم ومجامعهم ، فاذا كانوا بهذه المثابة . وصح انهم من آل علي حقيقة التصق بآل علي العيب ، وكان ذلك من اسباب النفرة عنهم،نسأل الله السلامة » .

فاتضح ان احتجاج المقري بكلام ابن حجر في ابن خلدون على المغاربة عموما . هو احتجاج في غير محله . والله اعلم .

القسم الثاني : النماذج

أورد ابن حزم في « المحلى 9/1 » حديثا من طريق وهب بن مسرة عن محمد بن وضاح ، فكتب العلامة المحدث الشيخ احمد شاكر ـ رحمه الله ـ تعليقا من جملته : « ووهب هذا هو ابو الحزم التميمي . كان حافظا للفقه والحديث والعلل ، فاضلا ورعا ، اخذوا عليه هفوة في الكلام في القدر » .

ولا شك ان الشيخ اخذ هذا الكلام عن الحافظين الناقدين : الذهبي وابن حجر ، فقد قال الذهبي في « الميزان » 47/4 :

« محمد بن مفرج القرطبي ، قال ابن الفرضي : ترك لانه كان يدعو الى بدعة وهب بن مسرة » .

وقال ابن حجر في « اللسان » 387/5 ، متمما كلام الذهبي :

« ووهب كان قدريا ، وفي المغاربة : محمد بن احمد بن يحيى بن مفرج من الحفاظ يحرر ترجمته ، هل هو المراد هنا او غيره ؟ وقد نسب هذا الحافظ الى جده الاعلى مفرج في عدة اسانيد ، فالظاهر انه هو ، وكانت وفاة هذا الحافظ سنة 380 . وقد اثنى عليه بالحفظ والضبط جماعة من الائمة . منهم : ابن الفرضي ، وابن عفيف والحميدي ، وذكر من جملة تصانيفه : « فقه الحسن البصري » في سبع مجلدات .

وقال في ترجمة وهب بن مسرة من « اللسان » 231/6 :

« وهب بن مسرة التميمي ابو الحزم من العلماء بالفقه والحديث ، وتكلم في شيء من القدر ، فعابوا عليه ، وتبعه جماعة على مقالته ، مات سنة 346 » .

والملاحظ ان الذهبي وهم في وهب بن مسرة فتبعه ابن حجر مزكيا وهمه ومضيفا اليه اوهاما اخرى فنتج عن ذلك سلسلة من الاغلاط .

اولها : ان ههنا اربعة اشخاص جعلهم الذهبي ثلاثة ، وابن حجر اثنين . وهم :

1) محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي .

2) وهـــب بن مسرة الحجـــاري .

3) **محمد بن مفـــرج الفنـــي .**

4) **محمد بن احمد بن يحيى بن مفرج الحافظ .**

ولا علاقة لاحد هؤلاء الاربعة بالآخر لا من قريب ولا من بعيـد كمـا سيظهر بعض ذلك من :

ثانـي الاغـلاط : ان الذي نسب الى القدر والاعتزال وخالف رأي الجماعة بالاندلس ، وظهر بمذهب جديد في الاصول ، فأحرقت كتبـه ، وجرح اتباعه ، هو : محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح الجبلي . وهو من اهل قرطبة وبها مات سنة 319 هـ .

اما وهب بن مسرة العالم السني المحدث الحافظ راوية ابـن وضاح وتلميذه الملازم له ، فهو : وهب بن مسرة بن مفرج بن حكم التميمي مـن اهل وادي الحجارة فكان يعرف بالحجاري ، وبها اقام ولم يدخل قرطبة الا للسماع او اسماع اصول ابن وضاح . وتوفي سنة 346 هـ . فهو أبعـد الناس عن التهمة التي ألصقها به الحافظان الذهبي وابن حجر .

ثالثها : ان محمد بن مسرة المبتدع له بالاندلس شهره كبيرة وقصص مأثورة بحيث يستغرب خفـاء شأنـه على مثـل الذهبـي مؤلـف « تاريخ الاسلام » العظيم ، حتى يخلط بينه وبين وبين وهـب بن مسرة والحال انه لا رابطة تجمعهما ، والغالب انه تحرفت عليه نسخة « المدارك » للقاضي عياض ، فقد نقل في ترجمة وهب من « تذكرة الحفاظ » 3 / 890 عن عياض قوله فيه : « بدت منه هفوة في القدر » مع ان عياضـا قال في ترجمة وهب من المدارك 452/4 . ط. بيروت عكس ذلك . قال : « وله كتاب في السنة واثبات القدر » ولم يتعرض لهفوة ولا غيرها . بل وصفه بأنه : « كان حافظا للفقه بصيرا به وبالحديث بصرا حسنا ، ضابطا لكتبه ، مع ورع وفضل ودارت عليه الفتيا بموضعه .... وسمع عليه عالم عظيـم ... واليه كانت الرحلة في حياته » .

وعلى فرض انه بدت منه هفوة ، فالهفوة بمجردها لا تقتضي ان يكون داعية الى مذهب . وله اتباع يتركون وتطرح رواياتهم . مع ان الله يعلم انه

بريء من الهفوات . ولو بدت منه اقل هفوة في المعتقد لطرحه الاندلسيون قاطبة ، ولما شدوا الرحال اليه ، واستقدموه الى قرطبة للسماع منه . كما يعلم من تشددهم البالغ في هذا الباب ولما ملأ ابن حزم كتبه من روايته ، وقد اشترط في اول « المحلى » ان لا يحتج فيه الا بحديث صحيح عنده . ومعلوم ان خبر الاحاد الصحيح عنده – بصرف النظر عن كونه في الصحيحين أو غيرهما – يفيد عنده العلم لا الظن ، ولا يفيد العلم عنده الا ورواته سالمون من كل ما يقدح في العدالة التي من اهم مفاهيمها عنده مجانبة البدع .

وهكذا راح وهب بن مسرة ضحية اشتراكه في النسبة الى « مسرة» مع محمد ان مسرة الفيلسوف ، فادخله ان حجر في « لسان الميزان » المخصص للمتهمين والضعفا ، وذلك ظلم له نتج عن عدم استخدامه هو والحافظ الذهبي – رحمهما الله – لما يستخدمانه بالنسبة الى المشارقة في التمييز بين المؤتلف اسماؤهم وانسابهم ، والحال ان التشابه يكون كاملا في الاسم واسم الاب والنسبة والبلدة والزمان . ومع ذلك يميزان بين عدد كبير من الرواة على هذا الشكل ، لا بين رجلين لا علاقة بينهما الا التشابه في اسم اب هذا . وجد هذا .

رابعها : محمد بن مفرج الذي نقل الذهبي عن ابن الفرضي انه ترك لانه يدعو الى بدعة (وهب) بن مسرة . لا بأس من الاتيان بنص ابن الفرضي فيه ليزداد هذا الامر وضوحا .

قال ابن الفرضي في « تاريخه » 84/2 : « محمد بن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافري ، من اهل قرطبة ، يكنى ابا عبد الله ، ويعرف بالفني . سمع من قاسم بن أصبغ وغيره ، ورحل الى المشرق ، فسمع بمكة من ابن الاعرابي ، وبمصر ، من عبد الملك بن محمد بن بحر بن شاذان الجلاب ، ولقي بها ابا جعفر احمد بن محمد بن النحاس ، فروى عنه تأليفه في اعراب القرءان . وفي المعاني ، والناسخ والمنسوخ ، وغير ذلك ، وهو أول من ادخل هذه الكتب الاندلس رواية ، وكان يعتقد مذهب ابن مسرة ، ويدعو اليه ، وكان قليل العلم . حدث وسمع الناس منه ، ثم ترك الناس الاخذ عنه ... » .

فلم يقل ابن الفرضي انه دعا الى بدعة وهب بن مسرة ، بل قال ابن مسرة فقط ، وابن مسرة معروف من هو بالاندلس . وقد ترجم له ابن الفرضي قبل ذلك 41/2 ترجمة بين فيها امره . ومما جاء فيها : « أتهم بالزندقة ، فخرج فارا ، وتردد بالمشرق ، فاشتغل بملاقاة اهل الجدل واصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم انصرف الى الاندلس ، فاظهر نسكا وورعا ، واغتر الناس بظاهره ، فاختلفوا اليه وسمعوا منه ثم ظهروا على سوء معتقده . وفتح مذهبه ، فانقبض من كان له ادراك وعلم . وتمادى في صحبته آخرون غلب عليهم الجهل فدانوا بنحلته .... » .

فلا ادري من اين جاء استنتاج ان ابن مسرة الذي تبعه محمد بن مفرج هو وهب ؟

خامسها : وهي تخص الحافظ ابن حجر وحده ـ : انه وقف على تاريخ ابن الفرضي ، لانه ينقل عنه كثيرا في كتبه . وقد راينا قول ابن الفرضي في ابن المفرج هذا : انه كان قليل العلم . ولما استنتج ابن حجر ان ابن مفرج هذا هو محمد بن احمد بن يحيى بن مفرج . قال :

ا ـ انه من الحفاظ .

ب ـ اثنى عليه الائمة ، منهم : ابن الفرضي ، وابن عفيف ، والحميدي بالحفظ والاتقان .

ج ـ تتبع فقه الحسن البصري (وحده) في سبع مجلدات .

فهل يكون الحافظ الذي هذا شأنه ، قليل العلم ؟

سادسها : وهي تخص ابن حجر كذلك قوله في ابن مفرج : « وذكر المصنف ـ يعني الذهبي ـ في الحفاظ ان ابن الفرضي روى عنه وأنه روى عن وهب بن مسرة ، فالظاهر انه هو » .

فقد استنتج أن ابن مفرج الفني هو ابن مفرج الحافظ ، ورتب استنتاجه على النحو الذي ذكر وهو غريب لامرين .

الاول : ان الذهبي لم يذكر في ترجمة ابن مفرج الحافظ من « التذكرة » 1007/3 . انه روى عن وهب بن مسرة . ولا ذكره في شيوخه حتى يستنتج ما استنتج ، بل لم يذكر احد ان ابن مفرج الحافظ روى عن وهب ابن مسرة ، لا ابن الفرضي تلميذه ، ولا الحميدي ولا عياض، ولا غيرهم ، وان كانت لا تستحيل روايته عنه اذ توفى وهب سنة 364 وابن مفرج 380 هـ ، ولكن لم يذكروا انهما اجتمعا .

الثاني : الاكتفاء بالرواية عن شيخ ما في تحديد شخص الراوي . غريب في حد ذاته . لان ذلك انما هو عندهم من جملة القرائن والمرجحات، وليس اصلا مستقلا في التعريف بالراوي .

وبعد : فان اسم « مفرج » شائع جدا بالاندلس . وفي علمائهم عدد كبير ممن اسمه او اسم ابيه او جده : « مفرج » وكتب تراجيمهم من كتاب الخشني الى « الاحاطة » لابن الخطيب . طافحة بهذا الاسم . ولا زالت اسر اندلسية في شفشاون وطنجة تحمل اسم « مفرج » الى الآن .

وقد ترجم ابن الفرضي في تاريخه فيمن ترجم لهم ممن يحمل هذا الاسم : لمحمد بن مفرج الفني احد اتباع ابن مسرة . ولشيخه محمد بن احمد بن محمد بن يحيى بن مفرج الحافظ الكبير الرحال ، في الجزء الثاني ص 95 . ومما قاله في ترجمته : « ... وكان حافظا للحديث ، عالما بعلله . بصيرا بالرجال ، صحيح النقل جيد الكتاب على كثرة ما جمع ، سمع منه الناس كثيرا ، واليت الاختلاف اليه والسماع منه ، من سنة تسع وستين ، الى ان اعتل علته التي توفى بها ، واجاز لي جميع ما رواه غيره مرة ، وكتب لي ذلك بخطه ، ولا خى » . فاظن انه لا محال للاشتباه بعد هذا بينه وبين اي « ابن مفرج » آخر كما انه لا مجال للاشتباه بين وهب بن مسرة الحجاري الحافظ وبين محمد بن مسرة القرطبي الفيلسوف .

بقية النماذج في العدد المقبل ان شاء الله .

مؤتمر الجزيرة الخضراء ودور علماء القرويين في إحباط مساعيه

للأستاذ : أحمد بغدادي

كان الفقهاء والمصلحون من علماء القرويين يرشدون المواطنين ، ويوجهونهم توجيها صالحا في دائرة الامكانات العقلية والعلمية ، ويعرفونهم بالاحوال ويؤلبونهم لدرء غائلة الخطر ، والحمل على الدخلاء (1) .

وكانوا أول من حمل راية المعارضة في وجه الاجنبي بروح اسلامية قوية وحمية وطنية مثالية ، وكانوا يرون فى حكم الاجنبي مذلة وهوانا (2) ، وفي الاعتداء على حرمة بلاد المغرب الحبيب – صانه الله – عارا وشنارا ، وكانوا الرعيل الاول الذي قاوم الاجنبي في هذه الديار بمناوأته ، وتعكير صفوفه ، لذلك نجدهم منذ ان عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء وما كان قبله من التمهيدات السابقة له يقفون مواقف مشرفة فى وجه العدو اثبتت مضاء

---

(1) انظر كيف كان علماء القرويين وشعراؤها يشحدون قرائح الناس لتجسم الخطر والتنبيه على طرق اجتنابه فى : الاستقصا للناصري ج : 9 ص 50 ، ط : الدار البيضاء – 1956.
فهناك قصيدة للشاعر الوزير محمد بن محمد ادريس العمراوي ومنها :

يا اهل مغربنا حق النقير لكم   الى الجهاد فما في الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم   من بعد ما سام اهل الدين بالشطط

(2) وانظر كذلك : « الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية » للمشرفي ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1463 .
وانظر لهذا الشاعر قصيدته الطنانة التي انشدها عندما استولت فرنسا على مدينة تلمسان ومطلعها :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد   فالكفر قد شاركم في البلاد

الى ان يقول في ختامها :

يا ايها الناس اتقوا ربكم   وجاهدوا في الله حق الجهاد

في نسخة آخر مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 1388 .

عزمهم وصلابة عودهم بما حبروه من فتاوي وما الهبوه من مشاعر وايقظوا من همم (3) .

وقبل أن نتمكن من بحث مؤتمر الجزيرة يبدو أنه من الضروري أن نتصور بقدر المستطاع ـ ظروف البلاد في عهد المولى عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وبتعبير أوضح ومعنى اصح الظروف التي دعت الى عقد مؤتمر الجزيرة ، تلك الظروف التي تتجلى في توليته الحكم وهو صغير السن ، وفي الفوضى التي كانت تتخبط فيها البلاد طوال العهد العزيزي ، والتغلغل الاوربي ، والازمات الناتجة عنه ، ثم الاوضاع السيئة التي يوجد عليها الاقتصاد ، وكذا بؤس السكان من شدة ما احسوا به من فقر وضيق وذل وهوان .

كل هذا يشكل العوامل التي ادت الى عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، تلك البلدة الصغيرة التي تقع على شاطىء البحر الابيض المتوسط الاسباني، والتي كانت فيها المعاهدة المشهورة فاضيفت اليها وسميت باسمها ، ولولا القضية المغربية لظل اسمها مجهولا كما كان قبل سنة 1906 م .

والواقع ان الظروف التي تقلد فيها المولى عبد العزيز حكم المغرب ، جعلته لا يمارس عمله المباشر نظرا لصغر سنه ، والذي تولى حكم البلاد من الناحية العملية هو حاجبه المعروف بالسيد « با احمد » فقد مارس هذا الاخير الحكم باسم السلطان ، وعمل بشدة وحزم على تسيير امور البلاد ، ووضع القوانين الداخلية لها ، وحاول ما امكنه ان يحافظ على التوازن المالي ليلا يضطر المغرب الى القروض الاجنبية ، ولكن بعد موت هذا الحاجب اصبح المولى عبد العزيز العلوي مسؤولا بنفسه عن العرش ، وعن كل ما يحيط به من مشاكل ، ووجد نفسه يواجه الغرب بكل تطلعاته التقدمية ، وبكل الدسائس الاجنبية التي تهدف الى احتلال المغرب ، والى خلق الفتن الداخلية به ، لتفسد على المولى عبد العزيز حكمه الشرعي،وعلى البلاد امنها واستقرارها .

والحق أن المغرب ـ في هذه الفترة التاريخية ـ كان يعيش تحت ضغط خارجي تتزعمه كل من فرنسا واسبانيا .

وكانت مصالح هاتين الدولتين الاستعماريتين تقتضي التفكير في خلق المشروعية لتدخلاتهما ، وفي تبرير ذلك وتيسيره .

لهذا نجد التاريخ يحدثنا عن تلك المعاهدات السرية والعلنية التي

(3) انظر مجلة تطوان عدد 6 عام 1961 . مقالا للاستاذ السيد محمد المنوني وهو يتحدث عن مواقف العلماء في وجه الاوروبيين منذ ان وطئت اقدامهم تراب المغرب وما كتبوا في تلك من نظم ونثر يحفلون الشعب المغربي فيهما عن مقاومة الاجنبي .

كانت بين هاتين الدولتين وبين دول أوربية اخرى باسم الاصلاح وحماية الرعايا الاجانب (4) .

ومن بين المعاهدات : الاتفاقية التي وقعت بين فرنسا وانجلترا سنة : 1904 م وبموجبها تلتزم انجلترا بالسماح لفرنسا بالتدخل في الشؤون المغربية على ان تمنح جزءا من المغرب لاسبانيا ، وعلى ان تلتزم بالصمت ازاء عمل انجلترا بمصر .

ومن الجائز ان تكون هذه الدسائس أدت الى خلق نوع من التعاون المباشر بين الدول الاجنبية المعنية بالامر ، وبين بعض الفتن الداخلية التي يتزعمها في شرق البلاد الجيلاني الزرهوني المشهور ب « بوحمارة » ذلك الثائر الغاشم الذي أرهق الخزينة المغربية آنذاك واضعفها (5) .

وهناك فتنة اخرى بشمال المغرب تزعمها القائد أبو العباس أحمد الريسوني الذي كان في أول أمره من اللصوص قطاع الطريق والذي أصبح احد الموظفين التابعين للمولى عبد العزيز (6) .

كل هذه الاحداث وامثالها تتعاقب على بلدنا المغرب عند ما كانت فرنسا الماكرة تقوم بمساع سرية لدى بريطانيا وايطاليا تهدف الى تحقيق

(4) انظر المسالة المغربية للدكتور محمد خير فارس ص : 179 ط : نهضة مصر القاهرة .

(5) انظر اصل هذا الفتان المارق ، وكيف انتحل لنفسه صفة النسك والدعوة الى الله ، وكيف اضل كثيرا من الناس بمعرفته لفنون السحر ، وادعائه انه المولى محمد نجل السلطان المقدس المولى الحسن الاول ، وصنو السلطان المولى عبد العزيز ، وانتهاؤه في قفصه في المهد الحفيظي في كتاب : « اتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » لمؤلفه : مولاي عبد الرحمن بن زيدان ، ج 1 ، ص : 399 الى ص : 441 ط عام 1347 هـ ـ 1929 م بالمطبعة الوطنية بدرب فاس عدد : 3 ـ الرباط .
وانظر ملخص فتوى علماء القرويين في حماقة هذا الفتان المتمرد واستهتاره ، ومشاركتهم في الحد من لعبه وطغيانه في ترجمة محمد الباقر الكتاني ص : 179، ط. الفجر 1962 ـ ومما جاء في هذه الفتوى (... واما ما صدر في هذا الزمان ، من الثائر الفتان من الخروج عن الطاعة وفراق الجماعة ، ومحاربة جيش السلطان ، والتلبيس على الناس بالسفسطة والبهتان ، فهو من الذنوب الكبائر المذمومة عند الاوائل والاواخر ، وقد ورد في ذلك وعيد وزجر شديد ، فكيف يليق بالمسلم العاقل ان يتبع هذا الفتان الجاهل من الخروج عن طاعة امير المومنين ، والدخول في طاعة اخوان الشياطين ...) .

(6) انظر طيش هذا الفتان وتمرده وكم اباد من عائلات واراق من دماء في سبيل شهواته واغراضه الشخصية ، وكيف ابتلاه الله بداء اعيا الاطباء علاجه الى ان صار كالزق يمج منه الماء المنتن مجا حتى كان يضطر الى تبديل ثيابه وفراشه في اليوم مرات ، في نفس المصدر ج 1 ص : 412 .

صفقة من أخس الصفقات في تاريخها الاستعماري القذر ، صفقة بدات محادثاتها الاولى بين باريز ولندن ، وامتدت من عام 1902 الى 1904 م .

واتفق فيها على أن ترضى ابريطانيا مطالب فرنسا في المغرب مقابل أن ترضى فرنسا مطالب ابريطانيا في مصر .

وهكذا وقعت فرنسا وابريطانيا عام 1904 اتفاقا حقق تنازلات متقابلة ومتعادلة وتدريجية لكل من فرنسا وبريطانيا في كل من المغرب ومصر ، تنازلات تنص على اعلان ابريطانيا اعترافها بأن لفرنسا ، بوصفها دولة مجاورة للمغرب ان تسهر على الهدوء ، وتقدم مساعداتها لتحقيق الاصلاحات الادارية والاقتصادية والعسكرية التي يحتاج اليها ، مقابل ما اعلنته فرنسا بأنها لن تعرقل عمل ابريطانيا في مصر ، ولن تطلب تحديد اجل الاحتلال البريطاني لها . وبعد ستة اشهر من توقيع الاتفاق الفرنسي البريطاني بدأت المفاوضات الفرنسية ، وانتهت الى اتفاقين : أحدهما علني والآخر سري .

أما العلني فهو تصريح اقرت فيه اسبانيا ـ ان من حق فرنسا السهر على الهدوء في المغرب ، وتقديم مساعداتها اليه لتحقيق كل الاصلاحات الادارية والاقتصادية والمالية التي يحتاجها ، مع تأكيد الدولتين على تمسكهما بتمام السلطنة المغربية تحت سيادة السلطان .

واما السري فقد حدد منطقة النفوذ الاسباني في شمال المغرب ، واعطى لاسبانيا فيها من الحقوق ما اخذته فرنسا في الجنوب ، ونص على اقامة وضع خاص في طنجة (7) .

وحينما أعلنت اسبانيا انها تسمح لفرنسا بحق السهر على استتباب الامن بالمغرب ، وعلى أن تبيح لها الاسهام في اصلاحاته الادارية والاقتصادية والمالية (8) . ثارت ثائرة السلطان المولى عبد العزيز ،وفي

---

(7) انظر تفصيل هذه الاتفاقيات بين فرنسا وبريطانيا وبين فرنسا واسبانيا في « المسالة المغربية » المار الذكر ، ص 171 ، ط. تقدمت .

(8) تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب للدكتور محمد خير فارس ص : 109 ، ط. دمشق 1972 ، وفيه : (قبلت اسبانيا في التصريح العلني اتفاق ابريل 1904) . فكان هذا بمثابة اعتراف منها لفرنسا بحق السهر على الهدوء في المغرب ، وتقديم مساعداتها لكل الاصلاحات الادارية و .. و .. و ..

الامام علماء القرويين ، وظهرت في هذا الجو المضطرب مساندة من المانيا، هذه المساندة التي قدمت في شكل زهرات سامة ، ليس لها من خصائص الزهر الا اونها وشكلها ، اما رائحتها ورحيقها فكريه سام خبيث ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « والذي خبث لا يخرج الا نكدا » (9) .

ويتجلى هذا واضحا في ان المانيا كانت تريد نصيبا لها عند اقتسام المغرب اكثر عما كانت تريد الدفاع عن استقلاله وسيادته ووحدة ترابه كما بينته الوقائع التاريخية ، وادى الموقف الى المطالبة بعقد مؤتمر دولي تشارك فيه الدول التي وقعت أيام المولى الحسن الاول على معاهدة مدريد (10) .

وهكذا طالب المولى عبد العزيز بعقد مؤتمر دولي من شانه ان يقضي على الامتيازات التي اعترف بها مؤتمر مدريد لفرنسا ، ويقضي على كل معاهدة سرية بينها وبين غيرها من الدول ، واعطى أمره بأن يكون هذا المؤتمر في طنجة (11) .

وفعلا عقد المؤتمر ، ولكن بالجزيرة الخضراء في 25 يناير الى 15 يونيه عام 1906 م بعد ان جرت مفاوضات ومشاورات حول برنامجه ومكانه (12) .

قلت ان السلطان المولى عبد العزيز دعا الى عقد المؤتمر ، وقد حدد في دعوته هذه مدينة طنجة المغربية مكانا لانعقاد المؤتمر ، وقد ايدته المانيا

---

(9) آيـة : 58 من سورة الاعـراف .

(10) انظر تاريخ المغرب في القرن العشرين لـ : روم لاندو وترجمة الدكتور نقولا زيادة ، ص 16 ، وما بعدها ، ط. دار الكتاب ـ الدار البيضاء .

(11) انظر : حفريات عن االحركة الدستورية في المغرب قبل الحماية لعلال الفاسي ، فهناك مذكرة مرفوعة الي السلطان المولى عبد العزيز على اثر مطالبة الدول باصلاحات في مؤتمر الجزيرة وهي عبارة عن توجيه نحو اقامة نظام نيابي يفزع اليه الملك لرفض ما لا يمكن قبوله من تلك الاصلاحات المزعومة اعتمادا على ممثلي الشعب ، ثم مشروع دستور لتنظيم الدولة بقانون اساسي في ظل ملكية دستورية من ص : 8 الى ص : 20 مطبعة الرسالة ـ الرباط .

(12) انظر هذا الاتفاق بتفصيل حول برنامج المؤتمر ومكانه وما قامت به فرنسا من مناورات ومراوغات من نقله من طنجة حتى لا يؤثر على موقفها ، وكيف اقتنع المولى عبد العزيز بهذا الاتفاق الذي قد تم بدونه في : « المسالة المغربية » المار الذكر من ص : 328 الى 339 .

بدعوى أن المؤتمر سيناقش في مسائل اقتصادية ومالية مغربية ، ولان هذه المسائل لا يمكن تداركها الا بمساعدة معلومات خاصة توخذ من نفس المكان

ولم يعجب هذا التايد الالماني كلا من فرنسا وانجلترا واسبانيا بحجج عديدة اهمها :

أ ـ انعدام الامن في طنجة وضواحيها .

ب ـ ضعف السلطات المحلية .

ج ـ ان اجتماع عدد من ممثلي الدول الاوربية لمناقشة مسألة تدخل الاوربيين في الشؤون المغربية قد يؤدي الى اخطار جديده تهدد سلامة مندوبي الدول ، وكذلك سلامة الجاليات الاوربية .

وفي مثل هذا الجو المضطرب على عدم ملاءمة طنجة لعقد المؤتمر اقترح ثلاثة أماكن : قادس ـ مالقة ـ الجزيرة .

وتم الاتفاق بين المانيا وفرنسا على الجزيرة .

وقد حضر المؤتمر بالاضافة الى المغرب والمانيا كل من فرنسا واسبانيا ، وبريطانيا ، وروسيا ، والنمسا ، وهنغاريا ، والبرتغال ، وايطاليا ، والسويد ، وهولندا ، وبلجيكا .

وكان رئيس الوفد المغربي السيد محمد الطريس ، وقد بلغ من الكبر عتيا ، وقد كان هذا الوفد متخوفا قليل الثقة بالمؤتمرين ، شاعرا شعورا قويا ، بأن كل مندوب كان يعمل بجد على ان يربح لبلاده قسطا على حساب المغرب ، الامر الذي فت في عضد رئيس الوفد المغربي ، وجعله يحس بغرابة في هذا الجو المضطرب ، وبعدم اخلاص المناديب لهذا الميثاق الا بقدر اتفاقها وانسجامها مع مصالحها .

ولعل هذا ما يجعلنا نفسر به قول « كارلو سفورزا » احد اعضاء الوفد الايطالي في مؤتمر الجزيرة في معرض الحديث عن رئيس الوفد المغربي .

« ان محمد الطريس كان متقززا ، لانه اضطر الى اضاعة من وقته وقد بلغ من الكبر عتيا ، في صحبة هذا العدد الكثير من الكفرة » (13) .

وفي البداية تناول المؤتمرون الحديث عن الامور التالية :

ا — مشكلـــة الامـــن بالمغرب .

ب — مشكلة تهريـــب الاسلحـــة .

ج — مشكلـــة انشاء مصرف الدولة .

وكان الاحتدام قويا بين المانيا من جهة وبين فرنسا وانجلترا مـــن جهة اخرى ، وقد حرص المغاربة اشد الحرص على المحافظة على سيادتهم وكرامتهم ، واقروا ادخال الاصلاحات ، شريطة أن تكون باشراف السلطان وتحت يده ، وغير مقيدة لسلطانه ، على أن يقتصر دور الدول الاوربية على تقدم الخبرات والمال اللازمين للاصلاح .

واذا كان علماء القرويين قد استبشروا خيرا بهذا المؤتمر بالاعتراف بسيادة البلاد وسيادة السلطان فانهم كانوا يحسون بتضييق شديـــد على هذه السيادة بسبب بعض القرارات التي وافق عليها المؤتمرون ، ومن ذلك مثـــــلا :

ا — اعطاء حق مراقبة تهريب الاسلحة لفرنسا في الحدود الشرقية، ولاسبانيا في شمال المغرب .

ب — ومنها وضع مراقبة دولية على كثير من المشاريع الاقتصادية والعمرانية . الشيء الذي جعلهم — وهم المعروفون بصرامتهم في الحـــق وخشونتهم فيه — يغضبون غضبتهم ويثورون في وجه الدسائس الفرنسية الاستعمارية الماكرة ، للمحافظة على وحدة المغرب ، وضمان استقلالـــه ، وبالتالي في وجه المولى عبد العزيز الذي لم يعد قـــادرا على مواجهـــة

---

(13) تاريخ المغرب في القرن العشرين المتقدم الذكر ، ص : 91 .
وانظر في هامش صفحة 561 منه ، ممثلين الدول المشاركة في مؤتمر الجزيرة .

الاستعمار ومكائده ، ولهذا نجحت المعارضة في ابعاده عن العرش وفي اعلان البيعة لاخيه المولى عبد الحفيظ من قبل علماء القرويين (14) الذين كانوا سببا في خلق المقاومة المغربية ، واذكاء روح الجهاد بين المواطنين في السهول والجبال ، وفي البوادي والحواضر .

وبعد أن أعلن علماء القرويين بوصفهم الهيئة النائبة عن جماعة المسلمين - عن خلع المولى عبد العزيز وعزله ، قيدوا بيعتهم للسلطان الجديد المولى عبد الحفيظ بالشروط التالية :

— أولا : الجهاد من اجل المحافظة على استقلال البلاد ووحدة ترابها .

— ثانيا : عدم الاعتراف لبعض المقررات التي وافق عليها المؤتمرون في معاهدة الجزيرة الخضراء ، لانها تتنافى مع المصلحة الوطنية .

— ثالثا : استرجاع النواحي المغربية المحتلة .

— رابعا : طرد جيوش الاحتلال .

— خامسا : الغاء الامتيازات الاجنبية .

— سادسا : عدم تدخل الاجانب في الشؤون الداخلية للدولة .

— سابعا : العمل بكل جدية على اشراك الشعب المغربي في المفاوضات التي تقام بينه وبين بقية الدول الاخرى .

— ثامنا : اذا دعت الضرورة الى اتحاد او تعاضد ضد المستعمر الغاشم ، فليكن ذلك مع اخواننا المسلمين كآل عثمان وأمثالهم من بقية الممالك الاسلامية المستقلة .

---

(14) انظر مجلة العالم الاسلامي ، يوليوز عام 1908 من ص : 424 الى ص : 235 حول الاستفتاء المؤرخ ب 30 دجنبر عام 1907 والذي وجهه سكان فاس الى علماء القرويين في شان شرعية خلع المولى عبد العزيز ، وانظر كذلك هذا الاستفتاء مع جواب العلماء المتضمن لوجوب خلع السلطان المولى عبد العزيز في : « ترجمة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني » ص : 196 . ط. الفجر - 1962 .

ـــ تاسعا : العمل على نشر العلم بين جميع المواطنين ، واختيار اهل الصلاح والتقى والمروءة والورع للمناصب الدينية .

ونظرا لاهمية الامر فنحن ننقل بعض النصوص لهذه البيعة الحفيظية التي هي من انشاء العلامة الكبير ، والكاتب البارع أبي العباس بن عبد الواحد بن المواز احد رجال الفكر انذاك (15) .

واولها : (الحمد لله جعل كلمة الحق هي العليا ، وأرشد المومنين من عباده لاتباع مقتضياتها امرا ونهيا ، وفضل الامة المحمدية على سائر الملل والاجناس كما فضل آل بيته الكريم على الناس ، وشرف هذا الوجود بمن يرقيه الله من خيارهم منصب الخلافة ...) .

وجاء فيها : (... بان يكون مهتديا الى مصالح الامور وضبطها ، في تجهيز الجيوش وسد الثغور ، وذا راي مصيب في النصر للمسلمين ، لا تروعه هوادة النفس عن التنكيل لمستوجبي الحدود ، فقد جعله الله زمام الامور ، ونظام الحقوق والقطب الذي عليه مدار الدنيا ...) .

ومنها : (... ويسعى جهده في رفع ما أضر بهم من الشروط الحادثة في الخزيرات حيث لم توافق الامة عليها ، ولا سلمتها ، ولا رضت بأمانة من كان يباشرها ، ولا علم لها بتسليم شيء منها ، وان يعمل جهده في استرجاع الجهات المأخوذة من الحدود المغربية ، وان يباشر اخراج الجنس المحتل من المدينتين اللتين احتلا بها . ويزين صحيفته الظاهرة بحسنة استخلاصهما . وان يستخير الله في تطهير رعيته من دنس الحمايات ، والتنزيه من اتباع اشارة الاجانب في امور الامة ، لمحاشاة همته الشريفة عن كل ما يخل بالحرمة ، وان دعت الضرورة الى اتحاد أو

---

(15) انظر هذه البيعة بأتمها في (اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس) للمؤلف المتقدم الذكر ج 1 ص : 449 ، وفي ترجمة الشيخ محمد بن عبد الكبير السالف الذكر ص : 198 ما نصه : (... ان الشيخ ابن المواز ـ رحمه الله ـ انجز هذه الوثيقة على شكل جامد لم يراع فيها التطور العظيم الذي كانت الامة تنشده من وراء هذا الانقلاب ، فقام الشيخ محمد بن الكبير الكتاني خطيبا بين الناس ، واعلن انه لا فائدة ترجى من هذا الانقلاب اذا لم تكن بيعة امير المومنين الجديد مقيدة بشروط تحقق للامة اهدافها ومقاصدها ، ثم تلا عليهم نص الشروط التي كان قد حضرها من قبل ، فوافق الجميع عليها ، وحينئذ سلمت لابن المواز ليضيفها الى نص البيعة ، فاضيفت اليه ووقعها الجميع) .

تعاضد فليكن مع اخواننا المسلمين كآل عثمان وامثالهم من بقية الممالـــك الاسلامية المستقلـــة ...) .

ومنها : (... وان يقر بفضله العيون والنفوس ، برفع ضرر المكوس، ويحقق رجاء خدامه وكافة رعاياه بالذب عن حرماتهم واموالهـم واعراضهم وصيانة دينهم ، وحياطة حقوقهم ، وتجديد معالم الاسلام وشعائره بزيـادة نشر العلم ، وتقويم الوظائف والمساجد ، واجراء الاحبـــاس على عملهـــا القديم ، وانتخاب أهل الصلاح والمروءة والورع للمناصب الدينية ...).

اخي القارىء الكريم : ها نحن امام فصول من هذه البيعة الحفيظيـة تتعلق كلها بالرغبة في القضاء على الفساد ، والفوضى التي حلت بالبـلاد ، والتي كانت السبب الاكبر للتدخل الاجنبي في شؤوننـــا .

وأمام فصول تتجلى اهميتها في كونها تنص على وجوب الرجوع الى الشعب واستشاراته في الامور كلها .

ومن بين الشروط التي طلب من السلطان الجديد المولى عبد الحفيظ قبولها والعمل بكل جدية على تنفيذها :

ا ــ حماية الناس والدفاع عن متاعهم ودينهم .

ب ــ النهوض بمبادىء الاسلام بواسطة نشر المعرفة . واصــــلاح الادارة بانتخاب اهل الصلاح والمروءة والورع للمناصب الدينية .

جـ ــ رفع ضرر المكوس لتقر بفضله العيون والنفوس .

وفي النهاية تجدر الاشارة الى اننا نرى ــ في بداية العهد الحفيظي ــ علماء القرويين ــ الذين يمثلون سكان البلاد ــ يفرضون على السلطان قبول شروط معينة ، قصد اعتلائه على كرسي الخلافة ، ونرى كذلك هذه البيعة تنص فيما تنص عليه ان الشعب محب للاصلاح ، وتعتبر اذن حسب تعبير المرحوم السيد علال الفاسي: « ميثاقا ــ قوميا ودستوريـــا من الطـــراز الاول » (16) .

(16) الحركة الاستقلالية في المغرب العربي لعلال الفاسي ، ص : 96 ، ط. شارع المنصور طنجـــة .

ونرى كذلك ان هذه الشروط ظلت المحور الذي يدور عليه نشاط علماء القرويين الذين هم مصابيح الامة في تنوير اذهان المغاربة ، واذكاء الروح الوطنية ، ومقاومة الاحتلال الاجنبي ، نحو التحرر والاستقلال ، السياسي والاجتماعي .

ونرى كذلك من هذا المنبر مدى الغيرة والايمان الذي كانت تتسم به مقاومة الاجنبي اذ ذاك التي تتمثل في مجانبتهم ومباعدتهم ، وترك معاملتهم ردعا لامثالهم (17) .

وانها لتزخر بصفحات لامعة تصور الوطنية الحقة ، والحمية الاسلامية التي كان هؤلاء العلماء يتوفرون عليها (18) .

ولعل ما ذكرناه من الامثلة فيه كفاية ، وان بقي الشيء الكثير الذي لا تحيط به العبارة ، والمقصود اعطاء نظرة في الجملة لا في التفصيل عن موقف علماء القرويين من اطماع الاستعماريين ، وتوجيه الامة المغربية الى مقاومتهم في كل وقت وحين ، والبصير النبيل يدرك موقف هؤلاء العلماء من أول دليل ، والله يهدي الى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مراكش : أحمد بغداد

(17) انظر رسالة الشريف الادريسي محمد بن عبد الكبير الكتاني الى قبيلة الشاوية يدعوهم فيها الى الجهاد ، ويذكر لهم ما ورد في فضل الشهداء في سبيل الله في : « ترجمة الشيخ محمد بن عبد الكبير الكتاني السالف الذكر ، ص : 189 » .

(18) انظر الصرخات التي استعمل العلماء في توجيهاتهم للمحتمي بالاجنبي انواعا من الزجر والقوارع والتحذيرات والانذارات في :
« مظاهر يقظة المغرب الحديث ، للاستاذ محمد المنوني ج 1 ـ مطبعة الامنية ـ الرباط في صفحه : 256 ـ 257 ـ 258 ـ 259 ـ 262 » .